الفصل الثالث

تحضير الإسلام للغرب

- حال الغرب عند الفتح الإسلامى .
- ترجمة العلوم العربية .
- كيف واجه العرب المدنية اللاتينية ؟
- حضارة الإسلام فى الغرب .
- تعارف الإسلام والمسيحية .
- ممالك الإسلام واحات الحرية .
- حرب الحقد المسيحى ..
- إحراق الكتب الثقافية ..
- الإكراه على المسيحية .
- تصوير الغربيين للحقد المسيحى .

obeikandl.com

obeikandl.com

حال الغرب عند الفتح الإسلامى

قال « لافيس » و« رامبو » فى « التاريخ العام » :

كانت إنجلترا الإنجلو سكسونية فى القرن السابع الميلادى إلى ما بعد العاشر فقيرة فى أرضها ، منقطعة الصلات بغيرها ، سمجة ، وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نجيب ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها فى وطء من الأرض : مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها . تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشى والسائمة ، وهى المورد الوحيد . ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوان ، يعيش رئيس القبيلة فى كوخه مع أسرته وخدمه ومَن اتصل به ، يجتمعون فى قاعة كبرى ، فى وسطها « كانون » ينبعث دخانه من ثقب فتح فى السقف فتحة غليظة ، ويأكلون كلهم على خوان واحد . وينام جميع المجتمعين فى تلك القاعة على الأرض ، أو على « دكات » ، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يستوجب ذلك على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين ، لئلا يؤخذوا على غِرَّة .

وكانت أوروبا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، تنبعث من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريس ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوان وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة .

وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الدواجن ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه وسادة من القش . ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .

قال « داربر » : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة (كالأضرحة) ، ومات الطب ، وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ، وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وقد زارت أوروبا مراراً فاجتاحت الملايين من أهلها فى أيام قليلة .

ويصور « چوستاف لوبون » حال أوروبا ، والإفناء الكنسى للعمران ، وكيف كان تأثير الإسلام على الوضع الأوروبى وتطويره إلى مستوى أفضل فيقول فى كتابه « حضارة العرب » :

« كان تأثير العرب فى الغرب عظيماً ، وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوروبا ، ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه ، أثّروا فى المشرق بالدين واللغة والفنون ، أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفاً (طبعاً فيما عدا الأندلس) . أما تأثيرهم بتعاليمهم - العلمية والأدبية والأخلاقية - فكان عظيماً .

« ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا إذا تصور حالة أوروبا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة .

وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت المدنية الإسلامية فى إسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة ديار الغرب ، كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العالية المستنيرة فى النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة ، يقضون الوقت فى ديرهم بالتكسب من نسخ كتب القدماء ، ليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة .

« وظل عهد الجهالة فى أوروبا ، وعمٌ تأثيره حتى لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبدُ فيها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذاك العهد ، ولم يدخل العلم أوروبا فى الحروب الصليبية وعن طريقها لأول مرة كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا » { وقد كانت كلها مراكز للحضارة الإسلامية } .

* * *

● ترجمة العلوم العربية :

قال « لوبون » : وفى سنة ١١٣٠ م أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة بعناية « ريموند » رئيس الأساقفة ، وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات ، وعندئذ عرف الغرب عالماً جديداً ، ولم تفتر الحركة فى هذه السبيل خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . وقد نقل إلى اللاتينية كتب اليونان التى كان المسلمون قد ترجموها أمثال كتب جالينوس وأبقراط وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس .

وقد عدّ « لكلرك » فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية ، فإلى العرب ، وإلى العرب وحدهم ، لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمية ، والعالَم مدين لهم - على وجه الدهر - لإنقاذهم هذا الكنز الثمين .

يقول « ليترى » : لو حُذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون فى الغرب [١]

---

(١) بل لما وجدت فى الغرب نهضة مطلقاً .. لأن تفجير أنوار المعرفة المتكاملة لا تشرق إلا من السماء .. وليس بعد نبى الإسلام نبوة .

ثم قال « لوبون » : تمتعت إسبانيا بمدنية سامية بفضل العرب ، بينما كانت بقية أوروبا غارقة فى التوحش العظيم ، ولو مشى الغرب تحت راية العرب لتسامت منزلته ، ولو رقّت أخلاق أهله ما وقعوا فى الحروب الدينية . ومذبحة « سان بارتلمى » و« ديوان التحقيق » ، وكل ما شاكل ذلك من المصائب التى أغرقت أوروبا بالدماء عدة قرون ، وما عرف المسلمون ما يشبهها فى أرضهم .

وقال أيضاً : كان تأثير العرب فى عامة الأقطار التى احتلوها عظيماً جداً فى الحضارة . ولعل فرنسا كانت أقل حظاً فى ذلك . فقد رأينا الممالك تتبدل صورتها حينما خفق عَلَم الرسول الذى أظلها بأسرع ما يمكن ، وشاهدنا فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة تزهر فيها أى إزهار .

وهكذا قال « دييل » : راجع خلفاء بنى أمية أساتذة مدارس الرها ونصيبين وحران وأنطاكية ، لينقلوا إلى السريانية وإلى العربية أهم كتب العلم والأدب عند اليونان وبيزنطية ، وجاء العباسيون بعد الأمويين فكان همهم أن يجمعوا المخطوطات اليونانية ، وأن ينقلوا إلى العربية أشهر كتب العلم والطب والفلسفة اليونانية ، وحتى القرن التاسع برمته وبغداد تترجم إقليدس وأرشميدس وبطليموس وديسقوريدس وثاوفرسطس وأبقراط وجاليونوس ، فبفضل العرب والمترجمين لهم وبفضل المدارس العربية فى قرطبة عرف الغرب النصرانى نفسه فلسفة أرسطو [١] .

قال « لوبون » : إن حماسة المسلمين فى دراسة المدنية اليونانية واللاتينية مدهشة حقاً ، وربما لم يقم من الشعوب مَن تقدمهم فى هذه السبيل .

وقال « لكرك » : كان كل ما فى أيدى العرب من العلوم فى آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلف فى الطب ، وبضعة كتب فى علم الكيمياء .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١/١٧٣ ، نقلاً عن كتاب بيزنطية لدييل (Diehll , Byzance)

وما انصرم القرن التاسع حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين ، ونبغ فيهم عدد عظيم من المؤلفين .

وقال « دوسن » : إن المدنية الأوروبية - بل المدنية الغربية كلها - مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وإن فتوحات العرب فى إمبراطورية الإسلام من القرن السابع ، إلى القرن الخامس عشر ، لتعدُّ إحدى عجائب التاريخ ، ومن المدهش أن يصبح العرب - وكانوا أول أمرهم على الفطرة - عنصراً فاتحاً ، ويغدوا سادة نصف العالَم فى مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ فى مائة سنة ، بينما نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام ، قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لإحياء العلوم [١] .

وقال « نوبرجر » : « فاقت المدنية العربية - فى أوج إمبراطورية الإسلام - مدنية رومية القديمة فى حيويتها وتنوعها ، على حين كان لحضارة الإسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة » .

وقال الدكتور « سارطون » : « إن العرب كانوا أعظم معلمين فى العالَم . وإنهم زادوا على العلوم التى أخذوها ، وإنهم لم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء » [٢] .

* * *

(١) تزول الدهشة حين يعرف أن العلم عباده مفروضة .

(٢) العلوم عند العرب والمسلمين للأستاذ قدرى طوقان ص ١٠ - ١١

كيف واجه العرب المدنية اللاتينية

قال « لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « ومن العوامل الفعّالة فى أصول المدنية التى وضع العرب أساسها ، ذلك المحيط الجديد الذى صاروا إليه ، وشدة ما كانوا عليه من الذكاء ، فإنهم ما كادوا يخرجون من صحاراهم ، حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية اللاتينية مستغربين شأنها ، عارفين تفوقها الأدبى ، كما أدركوا من قبل تفوقها الحربى ، فحاولوا فى الحال أن يساموها { ويرتقوا إلى مستواها وإلي ما هو أعلى منها } ، فتمثلوا مدنية قديمة يقتضى تمثلها فكراً مهذباً عظيماً .

وإن ما بذله البربر من الجهود خلال قرون كثيرة للأخذ ببقايا المدنية اللاتينية ، ليدل على مبلغ الصعوبة فى هذا الباب ، ولحسن الحظ لم يكن العرب متوحشين ، ونحن نجهل ما بلغوه من الحضارة فى العهد الذى سبق الرسول ، وكانوا على اتصال بالتجارة مع العالم ، وكانت لهم ثقافة أدبية عالية لما ظهر صاحب الرسالة . وبدهى أن أديباً إذا قضى عليه أن يجهل أموراً كثيرة ، يكون له من استعداده العقلى ما يؤهله سريعاً لإدراك أمور لم يكن يعرفها ، فكان تحمس العرب فى دراسة العالم الجديد الذي خرجوا إليه كتحمسهم فى فتحه واستصفائه .

ولم يحمل العرب في دراسة هذه المدنية التى فاجأتهم شيئاً من تأثيرات الأوضاع التى كانت ترهق البيزنطيين منذ زمن طويل .. وهذه الحرية فى الأفكار كانت أحد العوامل فى انبعاثهم السريع ، وقد يفعل ماضى الشعوب فى حياتها ما يكون منه نفع ، ثم يستعبدها لسلطان المواصفات العتيقة ، ويحول دون ارتقائها .

وما عتم [1] الاستقلال الطبعى فى أفكار المسلمين ، وقوتهم فى الإبداع

---

(١) أى : ما لبث (وحالاً)

والقصور أن تجلّيا فيما أحدثوه من أنفسهم (وابتكروه) . ولم يمض زمن قصير حتى طبعوا الهندسة والفنون والعلوم بطابعهم الشخصى الذى نعرف به آثارهم لأول وهلة . وإذا كانت فلسفة اليونان النظرية غير موائمة كثيراً لطبيعة أفكار العرب لم يُعنوا كل العناية ، فخصوا الفنون والعلوم والآداب بعنايتهم ، وأولعوا بها فدخلت شغاف قلوبهم » [١] .

* *

● تعقيب :

والواقع أن ما قاله « لوبون » بشأن فلسفة اليونان صحيح فى الجملة ، ولكنه ليس دقيقاً ، فقد درس المسلمون الفلسفة والمنطق اليونانى جميعه ، وعلّقوا عليها .. واستفادوا منها فى أسلوب التفكير ، وفى حوار المذاهب والملل والنحل . وحدد علماء المسلمين من أقوال الفلاسفة ما به يخرجون من المِلّة [٢] ..

على أنه من المعلوم أن هذا البعث الإسلامى لما كان عند اليونان القدماء ، بعد ترجمة المسلمين له ، وإخراجه من الأقبية ، حركة إحياء لما كان ميتاً في الغرب ، فقد كان المجتمع الأوروبى قد انحدر إلى أسفل سافلين : علماً ومدنية وأخلاقاً ... كما سنبينه بأقلام كتاب الغرب أنفسهم . لندرك فضل الإسلام على العالَمين . ولنثبت معجزة الحقيقة القرآنية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٣] ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَاراً ﴾ [٤] .

روى « دوزى » : أنه كان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كان فى أوروبا جميع النصارى - حتى النبلاء والأشراف منهم - لا يفكرون فى التعليم ، وقد أنشأ الوزير رضوان النصرى (٧٦٠ هـ) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها مدرسة .

* * *

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١/١٥٢ - ١٥٣

(١) انظر مقدمة كتابنا « الضالون كما صوّرهم القرآن » .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) الإسراء : ٨٢

حضارة الإسلام فى الغرب

قال مسيو رينيه ميليه : « هذا وإنى لا أطيل القول فى الشىء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأواً عظيماً فى بغداد وقرطبة ، وإنما يسرنى أن أبحث فى أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها .

« وإليكم أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث النزيه وهو أن الإسلام أعطى أشهى ثمرة لما سرت إليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

● حضارة الإسلام فى الأندلس :

« وإن لى كلمة على دولة الإسلام فى الأندلس التى فتحها مسلمو إفريقية الشمالية :

« انظروا إلى قرطبة تلك المدينة التى سقطت الآن إلى حضيض الهوان والفقر ، وانظروا إليها لما كانت فى عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مائة وثلاثة عشر ألفاً عدا ثلاثمائة من الحمامات العامة ، ثم إذا أردتم أن تقفوا على أخلاق أمراء المسلمين فى تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فإليكم صورة الوصية التى تركها عبد الرحمن الأول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التى تتعلق بتاريخ الإسلام فى أسبانيا :

« اعلم يا بنى أن المُلْك بيد اللّه يؤتيه مَن يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، فاحمد اللّه على أن وهبنا مُلْك الأندلس ، فعليك بتقوى اللّه وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة ، وخصوصاً أولئك الذين وكل اللّه شؤونهم إليك ، وساو فى حكمك وقضائك بين الفقراء والأغنياء ، ولا تُوَلِ أمور الناس إلا مَن عرفتَ فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جندك بالشدة واللين معاً ليكونوا حماة الدولة ، لا عوناً للظلمة من الحكام . وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمعونتك ، لأنهم مورد حياتنا ، واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك .. » .... إلخ .

« إنى أود أيها السادة أن أسمع مثل هذه الوصية من رئيس وزرائنا فى زمننا هذا ، ولا أفكر فى وصف ما كان يجرى فى بلادنا فى القرن العاشر - أى العصر الذى قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول - لأنى أخشى أن تتهمونى بعمل مقارنة تشوه سمعة العالَم المسيحى ، وتظهره بمظهر مخجل .

« لبثت هذه المدنية التى أتت بالمدهشات والتى لا يزال الناس فى حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمانمائة سنة . فتح العرب الأندلس فى سنة أو سنتين ثم لم تُنتزع من أيديهم إلا بعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو إلى العجب ، وإذا أضفنا إلى هذه المدة المائتين أو الثلاثمائة سنة التى استعلت فيها دولة الأتراك وبلغت شأواً بعيداً من العظمة الحربية ، علمنا أن الدول الإسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالَم مدة ألف سنة تقريباً ، وهى مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية .

* *

● تعارف الإسلام والمسيحية :

« ولكن ثمة أمراً يرتبط بالموضوع الذى نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ما جرى فى القسطنطينية وما جاورها من شواطىء البحر الأبيض وفى الأندلس من تعارف الإسلام والمسيحية وتآلفهما .

« ابتدأ هذا التعارف فى الأندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الإسلامى ، ولا يفوتنكم أن ما يرويه القصّاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين فى إسبانيا لا يطابق الحقيقة فى جملته ، لأنهم يمثلون « السيد » فى قصة ألّفها « كورنيل » بطلاً مقداماً أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) ، فى حين أن الحقيقة هى أن هذا البطل إنما قدّم نفسه لخدمة المسلمين ، وحارب فى صفوفهم ، ومات وهو بين المسلمين يحارب أعداءهم . إن المستقرىء لأطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الإسلام فى الأندلس يعلم أن الأمراء المسيحيين كانوا يستشيرون أطباء المسلمين إذا أصابهم أو أصاب أبناؤهم مرض ، وكثيراً

ما كانوا يفدون إلى قصور الخلفاء ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم ، فترون أيها السادة أن هذه العادات تناقض بتة ما يرجف به القصّاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين .

« لقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى فى الدَور الذى اضمحلت فيه دولتهم وأخذ أمراء المسيحيين ينقضونها من أطرافها ، فإذا أتيح لأحدكم أن يتجول فى أنحاء إسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك ، وعلى بقايا ما شيّدوه فى دور اضمحلالهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار أن الأندلس كانت بلاد غِنىً ورفاهية حتى فى دور تضعضع سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت فى ذلك العهد أيضاً بلاد تسامح وتساهل .

* *

● ممالك الإسلام واحات الحرية :

« وفى هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوروبا ، وكان كل مَن يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون إلى تلك البلاد فارين من البلاد التى كان يحكمها الأمراء المسيحيون ، وهى مهد القسوة والظلم ، هنالك يعاقب الأمراء مَن يأسرونهم فى ساحة الحرب بإلقائهم إلى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إرباً إرباً .

« لم يكن ذلك مقصوراً على الأندلس ، بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية . فإنكم تعلمون - أيها السادة - أن عظمة البندقية وجنوة فى العصور الوسطى راجعة إلى تجارتهما مع الشرق ، وتعلمون ما استفدناه من احتكاكنا بالمسلمين إذ ذاك ، فقد كان لنا كثير من البيوت التجارية فى فلسطين وسوريا واليونان ، ولا يخفاكم أن مَن أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسرى إليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى قلقت الكنيسة الكاثولكية على أبنائها من سريان روح الإسلام إليهم ، ونظرت بعين

الخوف إلى تنازع المبادىء الإسلامية والمسيحية ، وخصوصاً إلى مبدأ التسامح الذى كان آفتهم ، وعدوهم اللدود !!

« هذا وإن هناك حقيقة يجب أن نبينها ، وهو أنه فى هذه الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون ، أى من انتهاء الحرب الصليبية إلى فتح القسطنطينية (عام ١٤٥٣ م) - فى هذه الفترة التى تعارفت فيها المدنيتان المسيحية والإسلامية - كان الإسلام هو العنصر المؤثر والعالَم الأوروبى هو العنصر المتأثر ، فكانت أوروبا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج إليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهية حتى لم يعد فى إمكانها أن تدفع ثمن كل ما تشتريه ، ومن ذلك تعلمون أن سبب اندفاع أمراء أوروبا فى سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع فى الأكثر إلى فقر أوروبا وإعوازها من الحاصلات التى تتبادلها مع تجار المشرق .

« هذا من جهة الماديات .

« وأما من جهة العلوم والآداب فإن أوروبا لبثت ثلاثمائة سنة تقتبسهما من الإسلام ، وكانت المدنية الغربية تجنى ثمارهما اليانعة .

« ولكن حادثين عظيمين أوقفا سير ذلك التيار الكهربائى الذى كان يحيط بالبحر الأبيض المتوسط وهما : استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م واستيلاء الإسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

* *

● حرب الحقد المسيحى :

« فمن ذلك اليوم قامت حرب الأحقاد الدينية حتى إنك ترى آثار التعصب الإسبانى فى تاريخ عرب الأندلس كالنقطة السوداء فى الصحيفة البيضاء الناصعة ، ولا سيما فى ذلك الوقت الذى حالف فيه الأمير يوسف جماعة القسيسين . وفى رأيى تعصب الإسبانيين كان أفظع وأقل عذراً لأنه جاء فى زمن كانت القوة والعدد لهم . وأن الاستيلاء على غرناطة الذى يفتخر به

الإسبانيون ، والذى يحسبونه يجمِّل عصر « فرديناند » و « إيزابيلا » لم يكن فى الحقيقة إلا عملاً وحشياً بربرياً لم أعهد فى التاريخ أقبح منه ، خصوصاً وأن إمارة غرناطة لم تكن لتهدد إسبانيا فى شىء لاستيلائها على ما حواليها من الأراضى والمدن ، وإنما كانت غرناطة عروس إسبانيا وزينتها - ولا بد أن يكون الإكليروس الإسبانى أو الطليطلى رأى أن يمحق هذا الجمال ، ويزيل هذه المدنية البديعة خدمة للمسيحية ، والمسيحية بريئة منه .

* *

● إحراق الكتب الثقافية غدراً :

« والأدهى من ذلك أن المسيحيين كانوا أعطوا وعوداً قبل الدخول ، ولكنهم أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها فتلذذوا بمنظرها وظنوا أنهم بعملهم هذا قد قضوا على دين المسلمين وآدابهم » .

* * *

● تزييف تاريخ العلوم :

قال « بريفولت » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربى فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس . وليس لـ « روجر بيكون » ولا لسميه « فرنسيس بيكون » الذى جاء بعده الحق فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن « روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلّم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

« والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية . وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوروبا .

« من أين استفى « روجر بيكون » ما حصلّه من العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس ، والقسم الخامس من كتابه (Cepus mezas) الذى خصصه للبحث فى البصريات - هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب « المناظر » لابن الهيثم » .

وقال « ويلز » : « وكانت طريقة العربى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة ، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً فى ظل الإبهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوروبيين من اليونان ، وهى نُشدان النور ، إنما جاءتنا عن طريق العرب . ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طرق اللاتين » .

وقال « سيديو » عن المسلمين : « وإن نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا فى جميع الأشياء » .

وقال « كاردانو » : « إن الكندى من الإثنى عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الأول فى الذكاء فى العالم كله » .

ويقول « سمث » فى « تاريخ الرياضيات » [1] « ولم تدرس المثلثات الكروية المائلة بصورة جدية إلا على أيدى العرب فى القرن العاشر للميلاد » .

ويقول « نالينو » فى كتابه « علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى » [2] : « وفى أواخر القرن الثالث ، أو أوائل القرن الرابع توصلت العرب إلى معرفة كل من هذه القواعد المختصة بالمثلثات الكروية القائمة الزاوية ، إذ وجدتها مستعملة لحل مسائل علم الهيئة الكروى فى النسخة الخطية من زيج أحمد بن عبد الله - المعروف بحبش الحاسب - المحفوظة بمكتبة برلين ، وهذا الزيج أُلّف بعد الثلاثمائة بسنين قليلة جداً حسبما استدللت عليه بأدلة شتّى » .

* * *

(١) الجزء الثانى ص ٦٧٢

(٢) ص ٢٦٩

● لماذا ينكر الغرب أثر الإسلام ؟

قال الكاتب الأسبانى الكبير « بلاسكو إيبانيز » فى قصته المعروفة « فى ظل الكنيسة » : « ولعل القارىء الذى تساءل - والظروف كما ذكرنا - عن السبب فى إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب دينى .

« وتفسير ذلك : أن الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء فى مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه قد عاش فيهم دهوراً طويلة حتى أصبح جزءاً من كيانهم .

« فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الدينى تعصباً آخر هو أيضاً موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكناً من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتينيين وحدهم ، لأدركنا فى يسر - كيف ينكر الناس عامةً ذلك الأثر العظيم الذى كان للمسلمين فى تاريخ الحضارة الأوروبية ، وسوف يبدو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوروبا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش »[1] .

وقال الكاتب الفرنسى الممتاز « بيير لوتى » : « عندنا - نحن الأوروبيين - يعتبر من الحقائق الثابتة أن الإسلام هو دين من أديان الظلام الفكرى التى تحول بين معتنقيها والنور ، وهو يجلب الركود إلى الشعوب ، ويضع أمامها العقبات فى سيرها نحو ذلك المجنهول الذى ندعوه بالتقدم . وهذا يدل - قبل كل شىء - على الجهل المطلق بتعاليم النبى ، وفوق ذلك هو نسيان مذهل لشهادة التاريخ .. لأن الإسلام ، منذ القرن الأول ، قد جعل يتطور ويتقدم مع

---

(١) محمد رسول الله ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

الأجناس المتباينة . ونحن نعرف أيَّ صعود سريع ذلك الذى منح الناس إياه إبَّان حكم الخلفاء الأولين » [1] .

وقال « داربر » فى كتابه « تاريخ الارتقاء العقلى فى أوروبا » : من موجب الأسف أن الأدب الأوروبى حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين ، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم فيه . إن قلة الإنصاف المبنية على الأحقاد الدينية ، وعلى العنجهية القومية . لا تدوم أبد الدهر » .

وفى التاريخ العام لـ « لافيس » و« رامبو » : « إذا وجب أن يُذكر لكل واحد قسطه من العمل . لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب الجاهلة فى إفريقيا وآسيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان . ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبَّت فتمازجت تمازجاً متجانساً ، أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهى ذات وحدة خاصة وصفات فائقة » .

* * *

● إهمال دراسة الحضارة العربية :

قال الأستاذ « أمين فارس » - وهو مسيحى كبير - فى كتابه « هذا العالم العربى » : « إن الباحثين المعاصرين والمتأخرين لم يعنوا بالحضارة العربية العناية الكافية ، ولم يدرسوها الدراسة التى تستحقها ، ولم يبذل - حتى الآن - أى جهد منظم لدراستها دراسة دقيقة متقصية ، تبين علاقاتها بالحضارات السابقة والمعاصرة . وتحدد تأثيرها الأساسى فى الحضارات اللاحقة وبخاصة الحضارة الغربية . ونحن على يقين - استناداً إلى الدراسات الجزئية التى تمت

---

(١) هذا هو الإسلام - نقلاً عن فيليب حتى - تأليف بيير لوتى ص ٨٣

فى الموضوع - أن مثل هذه الدراسة ستظهر الأثر الخيِّر الذى كان للحضارة العربية على الحضارة الغربية ، مهما كان هذا الأثر ضئيلاً . ومثل هذه النتيجة تعيد الثقة إلى نفوس ناشئة المسلمين بأن الحضارة العربية - وإن انقضى دورها اليوم - كانت حلقة نيِّرة من حلقات الحضارة البَشرية التى نستمتع الآن بطور من أطوارها .

« على أن هذا الأثر لا يتم فى عقول هذه الناشئة ما لم يغير الباحثون الغربيون الذين يكتبون التاريخ الغربى خاصة . والتاريخ الإنسانى عامة .. موقفهم من الحضارة العربية فيعطوا هذه الحضارة حقها ، عند البحث عن مصادر الحضارة الغربية الحديثة .

« إن مؤرخاً عظيماً من مؤرخى الفلسفة كـ « برتراند رسل » مثلاً لم يخصص للفلسفة العربية والدين الإسلامى والنبى محمد أكثر من ١٦ صفحة متفرقة من صفحات كتابه الكبير « تاريخ الفلسفة العربية » البالغ عدد صفحاته ٨١٦ صفحة (طبعة لندن ١٩٤٨ - الطبعة الثالثة) .

« وهذا باحث أمريكى مشهور يؤلف حديثاً « بحثاً فى تفهم العالَم » ولا يخصص للعرب والمسلمين غير ١٢ صفحة من مجموع صفحات الكتاب البالغ عددها ٣٩٦ (بنيويورك عام ١٩٤٧ ف . س . ك . توثورب : التقاء الشرق والغرب) .

« قد يكون هذا مقياساً غير دقيق لتقدير الأهمية النسبية لأفكار الناس وأعمالهم ، ولكنه مقياس - على ما ينقصه من الدقة - يعكس لنا إهمال الباحثين الغربيين المعاصرين ما قدمه المسلمون ، وهم سُبْع الجنس البَشرى ، فى حقل الحضارة إليهم . على أن هنالك من الدلائل ما يشير إلى أن الباحثين الغربيين قد بدأوا يتلافون هذا النقص . فقد أشار « ويل ديورانت » فى كتابه « قصة الفلسفة » إشارة واحدة عابرة إلى الإسلام . أما فى كتابه الكبير الذى

صدر حديثاً عن تاريخ الحضارة فقد عقد للحضارة العربية الإسلامية سبعة فصول كاملة استغرقت (١٩٣) صفحة من صفحات الكتاب البالغة (١١٠٠) صفحة .

« كما ظهرت هذه العناية فى ازدياد عدد الجامعات والمعاهد العلمية التى تفسح المجال للدراسات الإسلامية ، وفى هذه الإعانات الضخمة التى تهبها المؤسسات العلمية للباحثين فى الشئون الإسلامية .

« وإن أفضل وسيلة نثير بها اهتمام الشباب العربى بتاريخهم وأقواها تأثيراً هى أن نجعلهم يهتمون بمشكلات بلادهم الحاضرة ، ويتفهمونها التفهم الصحيح » .

* * *

● الإكراه على المسيحية :

يقول « رينيه » : « ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا فى المسيحية كافة ، ولما لم يجابوا إلى طلبهم جمعوهم زمراً زمراً وحبسوهم في غرف واسعة ، ورشوهم بالماء إشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم ، ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المتنصرين لا يزالون يغتنون طمعوا فى أموالهم وصاروا يظلمونهم من آن لآخر . ومن ذلك ما وصل إلينا من أوامر « فيليب الثانى » التى يحرِّم عليهم فيها لبس الثياب العربية ، واستعمال اللغة العربية ، والاستحمام فى الحمامات العامة ، والسبب فى هذا الأمر الأخير أن الكنيسة الإسبانية كانت ترى الاستحمام جُرْماً لا يُغفر !!!

« ولقد زرتُ غرناطة ورأيتُ آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش ، التى أمر « فيليب الثانى » بتهديمها ، حقداً منه على المسلمين ومطاوعة لاعتقاد الكنيسة الإسبانية أنها مأوى الشياطين !!! فى هذه الحمامات كان العرب يتنظفون وبها يتطيبون ، مع أننا نلاقى مصاعب عظيمة فى تعويد بنى وطننا على عادة الاستحمام النافع ، وإنكم تعلمون كيف طُرِد المسلمون المُجبَرون على

التنصر من وطنهم سنة ١٦١٠ ، ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها » .

* *

• أثر غروب الإسلام في أخلاق الغرب :

ثم قال « رينيه » : « هذا ولا تظنوا أن أوروبا لم تتأثر من مفارقة المدنية الإسلامية فإنها بدأت تشعر اليوم بالنقص - ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت إليه أوروبا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الأجنبية ؟

« إلا أنها في علاقاتها مع الأجانب عنها كانت فظة غليظة القلب ، ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الإسبانيين أمريكا لتتبينوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من إسبانيا ، ولقد ضاع رشد الإسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الأمم الأجنبية .

« ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الأخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ، ولرأيتم أن اتساع سلطة أوروبا وانتشار نفوذها إنما كان باسترقاق السود وتعذيبهم ، ولرأيتم أن غرضها إنما كان جمع المال ، لا تتحرج من إتيان الشر والاعتساف ، كل ذلك جاءها من مغادرة الإسلام لها وافتراقه عنها - ولقد بلغ من غلوها في الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الأحايين أنه لا يستقيم لها بلداً إلا إذا استأصلت أهله وأهلكتهم ، وهكذا فعلت إنكلترا في أمريكا . نعم إن براعة الأوروبيين قد ظهرت في المسائل المادية ، فترقت العلوم والفنون والصناعات بين أيديهم . ثم إنهم تحملوا المشاق وقاموا بالأعمال الجسام ، ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم ، وأن يقفوا على كُنْه عقول ليست من عقول إخوانهم في الجنس ، وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خطتهم الأولى ، وشرعوا يلتمسون خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الأهلين الأصليين ومعرفتها معرفة صادقة .

obeikandi.com

« فهذا التفسير التاريخى كاف لإيقافكم على أسباب ارتقاء الإسلام تارة ، وأسباب أفول نجمه تارة أخرى » .

* * *

● تصوير الغربيين للحقد الصليبى :

يقول « چوستاف لوبون » : « عمل العرب ما ينفع الأندلسيين ما يقرب من عمر مملكة الرومان ، كانوا طوالها مثال المسامحة واللطف والحرية ، ولما عاد النصارى فافتتحوا « غرناطة » - آخر معقل للإسلام - اضطهدوا هؤلاء الذين أحسنوا إليهم اضطهاداً قاسياً ، على الرغم من المعاهدات المعقودة مع المسلمين ، والتى تعهد فيها « فرديناند » للعرب بترك حريتهم الدينية ، وحرية لغتهم التى عقدها معهم ، وأعلن « فيليب الثانى » طرد العرب من إسبانيا ، بحجة استيلائهم على الأعمال جميعها ، وأصدر أوامره سراً بذبح مَن أمكن ذبحه قبل مغادرة البلاد ، فأهلك نحو ثلاثة أرباعهم .

« ومنذ سنة ١٤٩٩ م بدأ عهد الاضطهاد ، بدءاً من التعميد بالقوة ثم إلى ديوان التحقيق الدينى حيث إحراق كل مَن يمكن حرقه ، ولأن ذلك يأخذ وقتاً ، فقد اقترح الكاردينال رئيس الأساقفة تطهير فرنسا من العنصر العربى الذى لم يتنصر رجلاً أو طفلاً أو امرأة . ولكن الدومينكى « بليدا » - وكان أشد قسوة - أمر بالإبادة التامة لمن تنصَّر ولمن لم يتنصَّر . وكان عدد مَن قتلوا مائة ألف مسلم ومسلمة خلال ارتحالهم إلى إفريقية » .

ويقول « سيديليو » ومعظم المؤرخين : « إن عدد مَن فقدتهم إسبانيا نحو ثلاثة ملايين . وذلك من فتوح « فرديناند » إلى طرد العرب الطرد الأخير ، بمن فيهم من العرب المتنصِّرة تقية (الموريسك) ، وكان ذلك سنة ١٦٠٤ » .

قال « لوبون » : « إذا قيست مذبحة « سان بارتلمى » بمثل هذه المجازر عدت مناوشة غير ذات أهمية . ومن سوء حظ إسبانيا أن هذه الثلاثة الملايين

الذين حرمت منهم إسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية فى العلم والصناعة » .

وهكذا كان الحال فى البرتغال ...

فقد قال المؤرخ البرتغالى « هركولانو » : « إن العرب عندما جلوا من لشبونة إلى البرتغال ، قبل جلائهم عن غرناطة بزمن طويل ، عاملهم البرتغاليون معاملة قاسية ، بمعاونة قرصان من الفرنسيين والإنجليز والنورميين والألمان والبلچيك ، إذ قتلوا الأطفال والرجال ، وسبوا الأعراض ، ودنّسوا كل شىء ، وأحرقوا فى مدينتهم أقواتها ، ، فهلك فى هذه المرة نيف وعشرون ألف نسمة .

« وفى سنة ١١٤٧ م استولى الملك « ألفونسو هنريك » على شنترين وشنترة ولشبونة ، وقد منع المسلمون من مغادرة تلك البلاد عند سقوطها فى أيدى البرتغاليين ، إلى أن طرد الملك « عمانويل » من بلاده المسلمين واليهود بلا قيد ولا شرط أواخر القرن الخامس عشر ، استجلاباً لرضا ملك قشتالة وأرجون وملكتها .

« وفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) نادى البابا بالحرب المقدسة لإجلاء « الموحدين » عن الأندلس ، فخفت لتجدنه جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا . فكان لهم ما أرادوا .

« وفى سنة ١٥١١ أمر الكاردينال « كسيمنس » بأن تحرق فى ساحات غرناطة كميات من الكتب العربية - وبخاصة المصاحف - فتم ذلك بغيرة عمياء استمرت نصف قرن . وكاد ديوان التحقيق الدينى الذى أخذ على عاتقه إبادة كل أثر للعرب أن يجعل تلك المخطوطات العربية فى مكتبة الأسكوريال طعاماً للنار ، لولا أن تلطف « المركيز فيلادا » وحال دون إحراقها » .

قال « ستانلى لانبول » : « إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتراجعهم فى مراقى النجاح ، بعد أن خلت أرضهم من الإسلام » .

وقال « لابريولا » : « لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت قد صارت إلى بربرية على عهد القوط ، وجعلوا إسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوروبية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون فضتها إسبانيا فى ظل مدنية العرب » .

وقال « لوبون » : « ظن الكردينال « كسيمنس » لما أحرق فى غرناطة كل ما طالت يده إليه من مخطوطات العرب - وكانت ثمانين ألفاً ، عدا ما أحرق فى المدن الأخرى ، أنه يحذف إلى الأبد من كتاب التاريخ ذكرى أعداء دينه ، ولكن الأعمال التى قامت على أيديهم فى تلك الأرض تكفى لتخليدهم على عنق الدهر ، وإن نفدت آثارهم المكتوبة »[1] .

* * *

● الواقع المعاصر أعظم شاهد :

عندما هَبَّ الغرب لتدمير العراق بحجة احتلال الكويت ، ولكن عندما احتل اليهود فلسطين أيَّدها الغرب المسيحى الحاقد والشرق الشيوعى الملحد وهيئة الأمم المتحدة ، وعندما غزا الصرب والجبل الأسود البوسنة والهرسك تخاذلت أمريكا عن حرب الإبادة لمسلمى البوسنة والهرسك ، وهكذا قل فى التخاذل الغربى الأوروبى والأمريكى فى الصمت على عمليات الإبادة لكل دولة مسلمة فى آسيا وإفريقيا . مثل كشمير وجنوب الفيلبين ، والصومال وأريتريا ، ومسلمى التركستان وغيرها .

* * *

(١) الإسلام والحضارة العربية - لكردعلى : ٢٦٦/١ - ٢٧١